بسم الله الرحمن الرحيم

١٢ — سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .

قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله[١] : (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبائهم . وقد ذكر أولًا ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ماقاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبيّ ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و (يوسف) اسم عبرانيّ ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه (راحيل) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولداً سمته (يوسف) وقالت : يزيدني به ربي ولداً آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقيّ في (الدلائل) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

---

(١) [١١ / هود / ١٢٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« الر » تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التعديد ، والإشارة فى قوله : « تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى آيات السورة ، نزّل ما بعده ، لكونه مترقباً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة فى (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرُها وإعجازُها ، إن أُخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أُخذ من المتعدى فالمفعول مقدّر ، أى أنها من عند الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » أى الكتاب المنعوت بما ذكر « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لكى تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى[1] : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ) . أو لتستعملوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيحاء . أو (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بإنزاله عربيا ، ماتضمن من المعانى والأسرار ، التى لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمعه حِكَماً وعِبَراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإيحائنا إليك « هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبىّ ﷺ . وقد جوز فى هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلًا من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه .

قال القاشانىّ : هذه من المنامات التى تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيّلة من النفوس

الشريفة التى عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت فى نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أبى ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة ، وكسرها لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتا) فحذف الألف ، وبقى الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعويض . وقوله : (رأيتهم) استئناف لبيان حالهم التى رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما فى قوله[1] : (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) . وإنما أجريت مجرى العقلاء فى ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود .

قال المهايمى : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أَرَ مَنْ تعرض لهيأة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعذوبة المصغّر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أى فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلا عظيما متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أى ظاهر العداوة ، فلا يألو جهداً فى إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشانى : هذا النهى من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية فى الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص فى النفس مفصلا ،

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٣٥].

حتى يقع العلم به كما هو، فيقع فى النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوبا . ويسمى هذا النوع من الإلهام، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) . قال الكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربيّ : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب فى بعض الأوقات إخفاء فضيلة، تحرزا من الحسود. وهذا داخل فى قولنا : إن الحسن إذا كان سببا للقبيح قبح. ومنه آية الأنعام(١) : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إنى لأكتمُ من علمى جـواهِرَهُ ... كي لَا يَرَى الحقَّ ذُوجهلٍ فَيَفْتَتِنَا

الأبياتُ المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالىّ فى (منهاج العابدين) والديلمىّ فى كتاب (التصفية) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى .

ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانيّ فى (إيثار الحق) : مما زاد الحق عموضاً وخفاء خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقيّة عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبلُ فى الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمّار به ، وتقريره عليه ، ونزلت فيه[1] : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) . وقد صح عن أبى هريره[2] أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثثتُهُ لكم ، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ لقطع هذا البلعوم . قال الغزالىّ فى خطبة (المقصد الأسنى) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعامى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، يصطفيك للنبوة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير المنامات ، وإنما سمى التعبير تأويلًا ، لأنه جعل المرئىّ آيلًا إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث مَلَك أو نفس أو شيطان .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » أى بما سيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتباء « حَكِيمٌ » فى صنعه .

تنبيهات :

الأول ـ قال أبو السعود ؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : (وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاقىّ منها ، مما هو أنفسىّ كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبىّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجرى أحكامه .

الثانى ـ استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث ـ قال المهايمىّ : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بعَيْنِهِ ، ومدح الشخص فى وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ؛ وأن لكل حادث تأويلا عند الأولياء، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال، إذ تصور المخيلة معانى معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعانى ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

بحث فى الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهانىّ فى كتابه (الذريعة) فى بحث (الفراسة) ما مثاله :

ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظّم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال [١] لنبيه ﷺ: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) . وقال[٢] (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ ...) الآية ـ وقال[٣] فى قصة إبراهيم: (يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) وقوله[٤] : (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) .

والرؤيا هى فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهى ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموّج، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية،

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٨ / الأنفال / ٤٣] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٤] .

ويفرق بين طبقات النـاس ، إذ كان فيهم من لا تصحّ له رؤيا ، وفيهم من تصحّ رؤياه . ثم من صحّ له ذلك ، منهم من يُرَشّح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظًّا من النبوّة . وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] : (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحرّيه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ورب نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، فى ذاتها الروحانية ، لمحة من صور الواقعات . فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ماتتشوّف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جلىّ بالمحاكاة ، والمثال فى الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير . وقد يكون الاقتباس قويًّا يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسيب فى وقوع هذه اللمحة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلًا محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شىء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، حديث ٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن . ومنه خاصّ ، كالذى للأولياء . ومنه عامّ للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً فى حالات الوحى ، وهى عند ما يعرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرويا بأنها (جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) ـ وفى رواية (ثلاثة وأربعين) ، وفى رواية (سبعين) وليس العدد فى جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم فى رواية (ستة وأربعين) من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ـ فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبى ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرىّ لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عامًّا فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذى هو جبلّىّ لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال[1] : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال (الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١ ـ ٣٥١٠

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانىّ الجسمانىّ ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب ـ على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره ـ وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنيـة ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارىّ ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التـكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الـكثيف . ولمَّا لطف هذا الروح الحيوانىّ من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بمـا يدركها من التعب والـكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لهـا طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الـكاملة . وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانىّ من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتـكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانىّ ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفَّت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثـل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تـكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحانيّ ، لأنها مفطورة عليه . وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة . والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى ـ أضغاث أحلام .

وفى الصحيح أن النبيّ ﷺ قال[1]: (الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملَك، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه. فالجليّ من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملَك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان، لأنها كلها باطل، والشيطان ينبوع الباطل.

هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيعها من النوم . وهى خواص للنفس الإنسانية ، موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ، ولابد . وإذا جاز ذلك فى عالم النوم ، فلا يمتنع فى غيره من الأحوال، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة فى كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث (علم تعبير الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً فى السلف ، كما هو فى الخلف، وأن يوسف الصديق، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع فى القرآن، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبيّ ﷺ ، وعن أبى بكر رضى الله عنه . والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوّره ، فإنما يصوّره فى الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشىء . ومن المرئىّ ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير، لجلائها ووضوحها، أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تتمة سابغة ، انظرها ثمة .

---

(١) أخرجه البخاريّ عن أبى هريرة فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢٦ ـ باب القيد فى المنام ، حديث ٢٥٣٩ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « ءَايَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوّته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقّ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانىّ : أى آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أوّلًا : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ ، فيعلمون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشرّ ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهنىّ ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم ، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوّى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال ـ عشرة فصاعداً ـ سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل فى الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد فى منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

« إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ذهاب عن طريق الصواب فى ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من المخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامينَ لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً » من مقول قولهم المحكىّ قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا فى كيده ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعدُ ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء . وتنكير (أرضاً) وإخلاؤها من الوصف ، للإبهام . أى فى أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : « يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ » جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه بدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم . « وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه « قَوْمًا صَالِحِينَ » أى تائبين إلى الله عما جنيتم ، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لا ذنب له،وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ،والده، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم!

الثانى ـ قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوّة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هـذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى[1]: (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَاأُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) وهذا فيه احتمال، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ » أى صريحاً ورَضِىَ به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف معها سدّ باب الصلاح . وإنما أظهره فى مكان الإضمار استعجلاباً لشفقتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و (الجب): البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأقوام الذين يسيرون

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

فى الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه،فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سدّ باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرّين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقدروى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رَؤُوبين) .

ولما تواطأوا على رأيه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم تخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب، والسعى والنشاط، حيث يكون الخضر والمياه والزروع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملاله القاطع انشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشرى : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقته إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثانى : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه، برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل . فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى ـ أى فيما حكى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

« قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى جماعة أقوياء ، يمكننا أن ننزعه من يد الذئب « إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ » أى هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أى بعد مراجعة أبيهم فى شأنه « وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا مامكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا » أى أعلمناه بإلقاء فى روعه ، أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك.

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متعلق بـ (أوحينا) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء فى (لتنبئنهم) ، أى : لتحدثنهم بذلك وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلوّ شأنك، كما سيأتى فى قوله تعالى[1] : (فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدُ ، يأكلون ويلهون إلى المساء .

وجواب (لما) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل: الجواب (أوحينا) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته القاطع عنه متمناه ، لتنقطع محبته عنه،ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلىّ . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا،ببكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى فى العَدْو والرمى بالنصْل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا » أى ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرها ليحفظه « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » أى كما حذرتَ .

وقوله تعالى: « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تلطف عظيم فى تقرير ما يحاولونه. يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا فى هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً ـ نقله ابن العربىّ ـ .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء على التصرف ـ كذا فى الإكليل ـ .

قال بعض اليمانين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفَسَقَة . وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون فى معنى القمار ، فلا يجوز .

الثانى: أن لا يكون فى معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالمناضلة بالقسىّ ، والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . فى ذلك قولان للشافعية . رجح الجوازُ ، إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه ﷺ [1] صارع يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت [2] : سابقت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقته فى المرة الأولى ، فلما بدنتُ سبَقنى وقال : هذه بتلك .

وفى الحديث [3] : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٢١ ـ باب فى العمائم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٥٠ ـ باب حسن معاشرة النساء ، حديث رقم ١٩٧٩ (طبعتنا) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبة بن عامر ، فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٣ ـ باب فى الرمى ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » بيان لما تآمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم أخذوا قميصه الموشى ، وغمسوه فى دم مَعزٍ كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ (جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افتروا) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغييب يوسف ، وتفريقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقوّاه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) ، وكثيراً ما تتفق الأعذار الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى (الإكليل) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : (بَلْ سَوَّلَتْ . . .) الآية .

لطائف :

قال المهايمىّ : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلًا ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلا يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبيًّا ، يُخلق أولًا على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغني من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

و(التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفا ، أي فشأني صبر جميل . أوفصبر جميل أجمل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذاعرضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية .

« وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أي المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ـ كذا قدروه ـ وحقق أبو السعود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه عَلَمٌ في الكذب . قال سبحانه[1] : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى[2] : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه ـ يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى .

قال الرازيّ : لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهي قوية . والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إعانته تعالى،

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٨و٨٣].

لم تحصل الغلبة . فقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يجرى مجرى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . وقوله : (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ) يجرى مجرى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . انتهى .

ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف فى الجب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَامٌ ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ » أى أرسلها فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ » وقرئ (يَابُشْرَايَ) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى . ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و (الغلام) : الطارّ الشارب . أو من ولادته إلى أن يشبّ . والتنوين للتعظيم .

« وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . فـ (بضاعة) حال . وفى (الفرائد) : أنه ضمّن (أَسَرُّوهُ) معنى (جَعَلُوهُ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو مفعول له . أى : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة : « وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠] (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

فى (أَسَرُّوهُ) و (شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجارا من بلدة مدين، فلما أصعدوا وردُهم يوسف ، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين ذرهما من الفضة ، ثم أتوا بيوسف إلى مصر . و (دراهم) بدل من الثمن . و (المعدود) ، كناية عن القليل ، لأن الكثير يوزن عندهم . و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه .

فوائد :

قال فى (الإكليل) ، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط ، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك . ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته . وأن ثمن الحرّ حرام . قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً ، وهو لا يملك ، إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

قال بعض الزيدية ، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية ، كما أن ظاهره الإسلام . اهـ .

قال المهايمىّ : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شىء قد يجد ما لم يكن فى خاطره . وأن الشىء الخطير قد يعرض فيه ما يهوّنه . وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة ، وبالعكس . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسّر له من اشتراه فى مصر ، فاعتنى به ، وأوصى أهله ، وتوسّم فيه الخير والصلاح . ومعنى (أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) اجعلى مقامه حسناً مرضيا . و(المثوى) محل الثواء ،وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرّة، واتخاذ الفراش ونحوه، فقد أكرم ضيفه بسائرما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر، فأقام فى بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه، والنجاح يحوطه. فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيّما على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة فى زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة فى أرض مصر ، ووجاهة فى أهلها ، ومحبة فى قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمْنَعُ عما يشاء ، ولا يُنَازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعما أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك العبودية . ومعنى (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول: بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و (الحكم) إما الحكمة، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس.

قال الزمخشرىّ : وفى قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متّقياً فى عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه .

وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته ، آتاه الله الحكمة فى اكتهاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، من مراودتها له وإبائه .

والمراودة : المطالبة. أى : طلبت منه أن يواقعها. وتعديتُها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر . وإيراد الموصول دون امرأة العزيز، لتقرير المراودة ، فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على مالا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ـ كما سيأتى ـ.

و(هَيْتَ) قرئ كـ (لَيْتَ وقِيلَ وحَيْثُ) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ، وفتح التاء وضمها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول أى المخاطب . ونقل عن الفرّاء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .

قال ابن الأبيارىّ : هذا وِفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم فى (القسطاس) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللهِ » منصوب على المصدر. أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيننى إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما اؤتمنت عليه ، وضرًّا لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .

قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السّوء.

وقوله : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتىّ الذى تكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف يمكن أن أسىء إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و (رَبِّى) خبر (إِنَّ) ، و (أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلًا .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء فى الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم ، كائناً من كان ، فيدخل فى ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والعصاة لأمر الله تعالى ، دخولًا أوليًّا . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللمزنىّ بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى ـ أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية ـ أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

الثالثة ـ أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال: التشريك غير مفيد فى كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب. وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخلّ بالمكافأة عليه ، كان ظالماً. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (الهم) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إمضائه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم هان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمٌّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان[1] وأهل السنن عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبرانىّ عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أى بمخالطته ، أى قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها (هَيْتَ لَكَ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

ومعنى قوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعى . ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٦ ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١و٢٠٢ (طبعتنا) .

قال أبو حيّان : ونظيره (قارفتَ الإثم لولا أن الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يقم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف فى الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلًا . وقيل : جواب (لولا) لغشيها ونحوه . فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازى : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم فى الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالًا ، تتهيأ للشاب النامى القوى ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همه بها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلًا جبليًّا ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصدًا اختياريًّا . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه ـ عليه السلام ـ تسجيلًا محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلزَّا فى قَرَنٍ واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو همّ كل منهما بالآخر . وصُدّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى ، وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النيّر ، على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميلة الجبلّى ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلّية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلّية، لكانوا إما ملائكة أوعالماً آخر . وَلَمَا كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعنّين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملًا ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسىّ .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرىّ .

هذا وقدألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصولحين ، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أنزه تأليفى عن نقلها ، بردّها ، وكلها ـ كما قال العلامة أبو السعود ـ خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لاكها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزمخشرىّ ، فجوّد الكلام فى ردها ، فلينظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .

و(السوء): المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تناهى قبحه

قال أبو السعود : وفى قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ . . .) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقيل : لنصرفه عن السوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة . فتأمل .

و (المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل: إن كل من له دخل فى هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ . . .) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله: (هِيَ رَاوَدَتْنِي)ونحوه ، وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله : (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُغوه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى . عفا الله عنهم !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ...) الخ ، وقوله : (كَذَلِكَ)الخ، اعتراف جئ به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب ، أى قصد كلٌّ سَبْقَ الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى لتمنعه من الخروج ووحّد (الباب)هنا مع جمعه أولًا ؛ لأن المراد بالباب البرانىّ الذى منه المخلص.

« وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبته من خلفه فانقدّ ، أى انشق قميصه .

« وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادفا بعلها ثمت قادماً .

« قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة لساحتها ، وإغراء عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

« قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّه منه أمارة الدفع عن نفسها به ، أو تعثره فى مقادم قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أمارة إدباره عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدّه من قُبُل ، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثَمَّ قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها ـ والله أعلم ـ

هى التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله[1] : (وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التى خشى أن تتطرق إليه فى حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثانى وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره فى الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال: (بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتى ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعنى بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً فى النفس ، ولهن فيه نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُّقَطَة والسرقة والوديعة ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ، إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

« يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا » نودى بحذف حرف النداء ، لقربه وكمال تفطنه للحديث.

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

« وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برىء منه .

« إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليباً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلًا حليماً ، إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير : أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال : إنه كان قليل الغيرة.

قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيّان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجدب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها ـ أثراً فى أخلاق البشر وأبدانهم ـ انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ـ وهى مصر ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شَغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و (الشَّغاف) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

« فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتيابهن ، وسوء قالتهن . استعير (المكر) لـ(لغيبة) لشبهها له فى الإخفاء . أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكراً بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيأت ، « لَهُنَّ مُتَّكَئًا » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشرى : قصدت بتلك الهيأة ـ وهى قعودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن ـ أن يدهشن ويُبْهَتْنَ عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتسكىء إذا بُهِتَ لشىء وقعت يده على يده ، فتبكتهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمنه ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفين عنـــه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز فى الطباع ألا أحسن من الملك ، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان . ولذلك يشبه ، كل متناه فى الحسن والقبح ، بهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالباً للعصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشرىّ : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ، لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمّ والبرهان . انتهى .

« وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ » أى ليعاقبنّ بالسجن والحبس « وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » أى من مواتاتها ، لأنه مشقة قليلة ،

تعقبها راحات أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى فى طلب العصمة بقوله «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ» يعنى : ما أردن منى « أَصْبُ إِلَيْهِنَّ » أى أَمِلْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية « وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى بسبب ارتكاب ما يدعونني اليه من القبيح .

قال أبو السعود : هـذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن لاطاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . لأنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن . انتهى .

قال القاشانى : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أى أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أى أيده بالتأييد القدسى ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » أى لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أى بما يصلحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

« ثُمَّ بَدَا لَهُمْ » أى ظهر للعزيز وأهله ، « مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ » أى الشواهد على براءته ، « لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى مدة يرون رأيهم فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصّا علىّ ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت فى المنام كأنّ بين يدىّ وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون فى يدى ، فأخذت العنب ، وعصرته فى الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال حُوّارى ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسى .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رأياه سهل التأويل ، لوجود مثاله فى المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوّة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام مايبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدانه كذلك . وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما : (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحى والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سماه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »

هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحى والإلهام، أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين. أو كلام مستأنف، ذكر تمهيداً للدعوة، وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه، والوثوق به . والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأسا ، كما يفصح عنه قوله : (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَىْءٍ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا ، فضلاً عن الوقوع. وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام . والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه يثبت بالطريق الأولى . أو المراد نفى الوقوع منهم لعصمتهم . وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيد كفرهم بالآخرة . وزيادة (من) فى المفعول ، أعنى (مِنْ شَىْءٍ) لتأكيد العموم ، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء، قليلاً أو حقيراً ، صنماً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك .

وقوله : (ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يعنى عدم الإشراك بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .

ولما ذكر ، عليه السلام ، ماهو عليه من الدين القويم ، تلطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام ، فضرب لهما مثلاً يتضح به الحق حق اتضاح بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَءَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبيّ فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولاً به . أى : أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوّتهم ، وهى قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع فى أن معرفة الله بصفاته ، حسنة فى نفسها ، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن . انتهى .

وفى قوله : (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت فى العلوم والسلطة ، كذلك فى عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها « إِنِ الْحُكْمُ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها ، لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة ، « ذَلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوهما إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه ، وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزمخشرى : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترص ذلك ، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفتاه واحد منهم ، أن يقـــدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولًا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليـه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته فى العلم ، فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضُه أن يقتبس منه ، وينتفع به فى الدين ـ لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتهما إليه ، وبيانه لهما مرتبة علمه ، شرع فى تفســير ما استفسراه . ولـكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتـكرير الخطاب فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويعلق على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . يعنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنـــه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلًا لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشكلة الحـكم ، المبهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما فى ذلك ، لما أنهما بصدده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقى : (اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للعنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المعروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادىّ أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى[١] : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى[٢] : (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ) . وفى الحديث[٣] : (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) . وجلىّ أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشرىّ ، ولذلك ميّز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل ـ يعنى يوسف ـ الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى ـ فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جدًّا ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [٥ / المائدة / ٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٢] و [٦١ / الصف / ١٤] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلا عن الحسن وقتادة . قال: وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، فى غير هـــذا الموطن . ـ والله أعـلم ـ انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » يعنى : فشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها.

ولأهل اللغة أقوال فى (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، يعنى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى لملئه : « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالـكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً أخر يابسات دقيقة، أى نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطـــاب للأشراف من قومه ، وكان دعا ، إثر استيقاظـــه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)

« قَالُوا » أى الملأ للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع (ضغث) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِمَ ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وتريها فى المنام . و(الأحلام) جمع (حلم) ، وهو ما يراه النائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشىء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث [1] ؟ الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشتىّ : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ » يحتمل أن يريدوا بـ (الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول يصيّره من وادى :

* على لا حبٍ لا يُهتدى بمناره *

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ١٠ ـ باب من رأى النبىّ ﷺ فى المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين . وقول الملك لهم أولًا : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أو لا . وقول الفتى : (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) إلى قوله (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) دليل أيضاً على ذلك ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)

« وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا » أى من صاحبى السجن ، وهو الساقى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى تذكر بعد مدة . وكان تذكره ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسى ، ولذلك لم يقل : أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أى فابعثونى إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر ، وما لحق من قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أى أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة فى الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أوّل ، لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى فى

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفى قوله : (أَفْتِنَا) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وأنه فى ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبتّ الكلام ، بل قال (لعلى) و (لعلهم) مجاراة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

* لعل المنايا دون ما تعدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه ـ أشار إليه أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ)

[٤٨] (ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تحْصِنُونَ)

[٤٩] (ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ)

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفعتم لهن من الحبوب

المتروكة فى سنابلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى فى الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئىّ فى المنام ، والمعبر به ،وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلىّ ـ أى يؤكل فيها ـ كما فى : (نهاره صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ » أى تحرزون وتخبئون للزراعة .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدة ، وأكل الغلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يمطرون من الغيث ، أو يغاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوهما .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (العصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب ، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أُخَرَ غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارة له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يَعْصِرُونَ) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ .

قال الزمخشرىّ : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

تنبيه .

قال فى (الإكليل) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ،وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عامًّا فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفى قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك فى تعبير الرؤيا والفتوى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملاً ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشرى : إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ماخلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها . قال عليه السلام[1] : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

---

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

مواقف التهم . ومنه قال[١] رسول الله ﷺ للمارّين به فى معتكفه ، وعنده بعض نسائه : هى فلانة ، اتقاء للتهمة .

وعن النبىّ ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : (ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق فى مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى فى المسند والصحيحين[٢] مختصراً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ـ مدحه النبىّ ﷺ على هذه الأناة ، وكان فى طىّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعى متوافرة على الخروج منه ، فَلأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجسدر ـ أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقى منها ما لقى ، من مقاساة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبىّ ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) :
وأخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١١ ـ باب قوله عز وجل : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .
وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ (طبعتنا) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى، ولم يصرح بمراودتهن له،وقولهن (أطع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » يعنى ما كدنه به . وفى إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تتميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لهن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبنى على السؤال ، كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن ـ أى شأنكن ـ إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعنى : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أى قبيح . بالَغْن فى نفى جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة (من) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فى قوله : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشرى : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة، والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن، بأنه لم يتعلق بشىء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه. وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى ـ * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٢] (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

« ذَٰلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذى اعترفت به على نفسى « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .

« وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يسدده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسى مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته . أو تعنى : أنى ما أبرئ نفسى من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالعصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ ...) الآية ـ على أنه حكاية قول امرأة العزيز ـ قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردىّ فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سواه . والمعنى : ذلك التثبت والتأنى والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

(وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن مافيه من الأمانة ليس به وحده،وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أى لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوئ .

هذا خلاصة ما قرروه على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك ـ والله أعلم ـ .

لطائف :

الأولى ـ محل قوله : (بِالْغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى ـ وأنا غائب أو غائبة عنه، أو وهوغائب عنى خفىّ عن عينى.أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ،وهوالخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية ـ قيل : معنى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لايهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى[1]:(يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى قولهم .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالثه ـ قال فى (الإكليل) : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أصل فى التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : لقدلفقت المبطلة روايات مصنوعة ـ ثم ساقها ـ وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق فى التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة ـ رأيت لابن القيم فى (الجواب الكافى) فى عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعى من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة فى مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة: إنها أضعاف مايذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعى ، وزوال المانع ، وكان الداعى ههنا فى غاية القوة وذلك لوجوه :

أحدها ـ ما ركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان الى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد .

الثانى ـ أن يوسف عليه السلام كان شابًّا ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى .

الثالث ـ أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع ـ أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى لغيره فى وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس ـ أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس ـ أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلفـــاً فى الحب أن مُنِعَت   أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، وتضمحل عند إبائها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع ـ أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن ـ أنه فى دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة .

التاسع ـ أنه لا يخشى أن تنمى عليه هى ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر ـ أنه كان مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأُنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعنى : قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السواد بيننا .

الحادى عشر ـ أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن ، وشكت

حالها إليهن، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال[١] : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثاني عشر ـ أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر ـ إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف[٢] : (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) ، وللمرأة[٢] : (اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال[١] : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتنّ به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » أي أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه، وكرم

(١) [١٢ / يوسف / ٣٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٩] .

نفسه ، وسعة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته ـ وجوّز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه السلام ـ « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شيء.

روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبّر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصته ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهبطاً للإمداد الربانىّ ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرّفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشى ، وقد أقمتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعه فى إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به فى شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يمضى أمر ، ولا ينفذ شأن فى مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوّجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة ـ والله أعلم ـ .

قال بعضهم : إن من أمعن النظر فى قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقىّ الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده ويُنجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشرًّا ، ولا للتنكيل به ألماً وضرا ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ـ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نقتفى أثره عند طروء التجارب ، وملاذا نعوذ به فى المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت فى مواقف العثار ، ونهج منهاجه فى التقوى وطيب الإزار ، فننال فى الدنيا سمة المجد ، ونفوز فى الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ » أى يوسف للملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى ولّنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشرىّ . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبىّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالقضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته ، وفى أن المتولى أمرا ، شرطه أن يكون عالما به ، خبيرا ، ذكىّ الفطنة ـ كذا فى (الإكليل) .

قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جعله على

خزائن الأرض ، إيذانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنىّ عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ، وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة فى ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات . . . الخ .

ولم أر الآن مستنده فى كون الأهرام كانت مجمع الغلات، ولم أقف عليه فى كلام غيره.

و (الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتحتين ، وهى مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقى منها الآن ثلاثة فى الجيزة، بعيدة أميالاً عن القاهرة، معدودة من غرائب الدنيا. دعيتُ لرؤياها أيام رحلتى للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقرّ رأى المتأخرين فى تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن لملوكهم.

ففى كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادى النيل) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية آثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو)، والثانى للملك (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَّشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أى أرض مصر « يَتَبَوَّأُ مِنْهَا » أى ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجوّل في قطرها ، وطاف قراها ، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال: « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن مايدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والملك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » إشارة إلى ماوقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركاتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول، ولما مضت هذه السبع ،دخلت السنون المجدبة، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، فأخذ الناس ، من سائر البلاد،فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها. وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب، لتناول القحط بلادهم ـ فلسطين ـ فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ، وعدم استشعارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متنكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد. قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثنى عشر ، هلك منا واحد .قال: فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لابد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلىّ ،ليتحقق صدقكم. ثم أخذ شمعونَ ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يعطوا زاداً للطريق ، وهذا ماأشير إليه فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ)

«وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ» بفتح الجيم، وقرئ بكسرها،أى أوقر ركائبهم بالطعام والميرة. « قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ » أى أتمه « وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى المضيفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » أى فيما تستقبلون ، «وَلَا تَقْرَبُونِ » أى ولا تقربونى بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أى سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده ، ونجتهد فى ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله ـ قاله أبو السعود ـ « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أى ذلك. يعنون المراودة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أى لخدامه الكيالين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعنى ببضاعتهم ، ما شروابه الطعام . روى أنها كانت فضة . أى اجعلوها فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أى لكى يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ » أى وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى حسبما أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أى أنذرنا بمنعه بعد هذا، إن لم نأت بأخينا ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ » أى نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحتية أى أخونا لنفسه مع اكتيالنا ، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أى من أن يناله مكروه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم[1]: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ثم خنتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى ، هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

« وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته ، فرأى فضته فى فم متاعه فقال لإخوته : قد ردّت دراهمى وهاهى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإنزالنا عنده ، وردّ الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [١٢ / يوسف / ١٢]

استنزاله عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا. وقرئ على الخطاب . أى : أىّ شىء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟

« هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : (ماره) أتاه بطعام ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شىء مما نخافه « وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » أى سهل على هذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شىء يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَ » أى لهم أبوهم « لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويميناً به ، لتردنه علىّ « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ » أى

تغلبوا كلكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : (أحاط به العدوّ) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاته تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًّا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولًا فى حق يوسف[1] : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانيًا : (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضًا بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَقَالَ » أى أبوهم : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يمسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزىّ متحد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

(١) [١٢ / يوسف / ١٣] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع فى التنبه ، واتباع البصر . وقيل : نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة ـ وسيأتى بيانه ـ .

« وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئا مما قضى عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا[1]: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وقال[2] : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ، وهرب منه إليه . « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شىء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى ذلك الدخول « يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا » أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحى ، ونصب الأدلة ، حيث لم يعتقد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ،وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧١و١٠٢] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلوّ مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ.
« وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى (الملل) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ، إشفاقاً عليهم ، إما من إصابة العين ، وإمامن تعرض عدوّ ، أو مستريب بإجماعهم ،أوببعض ما يخوّفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك، لا يغنى عنهم من الله شيئاً يريده عز وجل بهم . ولـكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا[1] : (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا يغنى شيئاً ، كما كان عليه السلام[2] يحب الفأل الحسن .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية ـ على ماروى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ أن العين حق[3] ، وأن الحذر لا يردّ القدر . ومع ذلك لابد من ملاحظة الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استحباب البعد عن مضارّ العباد ، والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا يغنى الحذر عنه . ثم قال : وفى (التهذيب) أن أبا علىّ أنكر الضرر بالعين ، وهو مروىّ عن جماعة من المتكلمين .

وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ١١] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٤ ـ باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٦ ـ باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلف من أين أتت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اختص ببعض الأشيـاء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها فى بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل فى جسم آخر شيئاً إلا بمماسّته ، أو ما فى حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعلَه ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله العادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هـذا الحاكم ، وهو الذى ذكره الزمخشرىّ والأمير الحسين ، وهو قول أبى هاشم ، ذكره عنهمـا فى (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازىّ بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخىّ : إنه لا يمتنع أن تـكون العين حقًّا ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهـد الشىء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له فى تـكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشىء حتى لا يبقى قلب ذلك المـكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعدل عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعنده تتعيّن المصلحة . ولمـا كانت هذه العادة مطّردة ، لاجرم قيل :العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) هـذا البحث بما يشفى ويكفى ، فى (بحث هديه ﷺ فى علاج العين) بعد إيراده ما روى فى الصحيحين وغيرهما من حقيّة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ،قال :

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالهـــا وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفـــع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا فى

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالمعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسامّ جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلا . وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم . وهؤلاء قدسدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواصّ وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه . ويستحيي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيّناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره . وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأفعى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوّها انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر فى طمس البصر . كما قال ﷺ [١] فى الأبتر وذى الطفيتين من الحيات: إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل. ومنها ما يؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه [٢] : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وقال [٣] : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرمى الحسّى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانىّ . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُرِف

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٢ ـ باب فى قتل الحيات ، حديث ٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ ـ ٥] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيّم ، عليه الرحمة .

وقال الرازيّ : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانيًّا محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذى يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشى عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشى عليه . وما ذاك إلالأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل فى قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدًّا، فمبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفسانىّ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان، فثبت أنه لا يمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فمنده لا يبقى فى وقوعه شك وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية بإصابة العين، كلام حق. لا يمكن ردّه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إما على الطعام ، أو فى المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإنزالهم فى بيته ، وحلولهم فى كرامته وضيافته ، وحضورهم معه فى غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه ـ كما ذكر فى الآية ـ ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتيانه ، إذ جهز إخوته ، أن يضعوا سقايته فى رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به بوسف ، وضعه فى ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا ، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسعى فى إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ » ؟

« قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذّن) نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذّن أكثر الإعلامَ ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه .

و(العير) : الإبل التى عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجىء ، وهو اسم جمع للإبل ، لا واحد له ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة (عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، ومافيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربى : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » أصل فى الجعالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كرتين مجيئهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاءُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جُزَؤُاهُ » أى جزاء سرقته، أخذ من وجد فى رحله رقيقاً. وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هى خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو .

« كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقة ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين، نفياً للتهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » أى دبرنا لتحصيل غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه فى قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور

فطنته ، وكمال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لهاوالآيات فى ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » يعنى : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَشَاءُ » أى بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفى إيثار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أى من أولئك المرفوعين « عَلِيمٌ » أى فوقه أرفع درجة منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

« قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذاتنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به . أى : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .

« فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا » أى منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البرىء .

« وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أى من أمر يوسف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لما تعين أخذ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم ، طفقوا يعطّفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، فخذ أحدنا بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد فى الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفى ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشفّ عن حسن طوية، ووفاء بالوعد، ويعرب عن أمانة ، وصدق بر، وشدة تمسك بموثق أبيهم، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ برضاة أبويه .

وقولهم : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أى إلينا ، فأتم إحسانك بهذه التتمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ)

« قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس . كما دل عليه (السين والتاء) فإنهما يزادان فى المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم . و (نجيًّا) حال من فاعل (خلصوا) أى : اعتزلوا فى هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجىّ (فعيل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله [1] : (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) أى مناجياً، وهذا فى الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال: هم خليطك وعشيرك، أى مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على (فعيل) بمنزلة صديق، وبابه. فوحد لأنه بزنة المصادر، كالصهيل والوحيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجى، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير . وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ فى المعنى ، ولذا قال الزمخشرىّ : وأحسن منه ـ أى من تأويل (نَجِيًّا) بذوى نجوى أو فوجا نجيًّا أى مناجياً ـ أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم فى تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون، وما يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم ؟ كقوم تمايوا بمادهمهم من الخطب، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة:

ذكر القاضى عياض فى (الشفا) فى (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ : فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبىّ فى كتاب (الإيجاز والإعجاز) فى الباب الأول : من أراد أن يعرف

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٢] .

جوامع الكلم،ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيماء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن ، وليتأمل علوّه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره ، فى إخوة يوسف (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا)، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معانى القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، (رَوُبين)، « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ » أى عهداً وثيقاً فى ردّ أخيكم ، وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أى قصرتم فى شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و (من قبل) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم[1] (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2] .

« فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسببٍ ما .

« وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

---

(١) [١٢ / يوسف / ١١] (٢) [١٢ / يوسف / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

« ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » أى : نُسِبَ إلى سرقة صواع الملك ، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » أى ما شهدنا عليه بالسرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به ـ كذا فى الإكليل ـ ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به فى مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يعنون مصر . أى : أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة . « وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فيما أخبرناك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » معناه : فرجعوا إلى أبيهم ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أى زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدْرَى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ، لو لا فتواكم وتعليمكم .

قال الناصر : هذا من الزمخشريّ إسلاف جواب عن سؤال ، كأن قائلا يقول : هم فى الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء ، وأما فى هذه الوقعة الثانية ، فلم يتعمدوا فى حق بنيامين سوءا ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) كما قال لهم أولا ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلابد من زيد بسط فى الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِنٌ باتهامه لما أسلفوه فى حق يوسف عليه السلام ، وقامت عنده قرينة تؤكد نفى التهمة وتقوّيها ، وهى أخذ الملك له فى السرقة ، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى[1] : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول فى حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع فى رحل من يوجد فى رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم . وهذا فى شرعنا لا يثبت السرقة عليه ـ والله أعلم ـ .

وقوله : (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول . اهـ .

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » أى بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحالى وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المعجل تعجيل الفرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض « عَنْهُمْ » أى عن بنيه كراهة لما جاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ! و (الألف) بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزآها . والرزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثراً ـ لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غضًّا طريًّا عنده ، كما قيل[1] :

* ولم تُنْسِنِى أوفى المصيباتِ بَعْدَهُ * وَكُل جَدِيدٍ يُذَكِّر بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقاً بحياتهما ـ دون حياته .

---

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الركبُ (أَوْفَى) حين آبت ركابُهُمْ ... لعمرى لقد جاءوا بشرّ فأوجعوا
نَعَوْا باسق الأخلاق لا يُخْلِفُونه ... تكاد الجبال الصمّ منه تَصَدَّعُ
فعزيت عن (أَوْفَى) بِ(غَيْلانَ) بَعْدَهُ ... عزاءً وجفنُ العين بالماء مُتْرَعُ
ولم تُنْسِنِى (أَوْفَى) المصيباتُ بَعْدَهُ ... ولكنّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

وقائلها هشام،أخوذى الرّمة وغيلان هو ذوالرّمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد (طبعة الحلبىّ) .

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشريّ : إذا كثر الاستعبار محقت العَبرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر.

« فَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعيل) بمعنى (مفعول) كقوله[1] (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكه إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف جاز لنبيّ الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال[2] : إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له فى ذلك ؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

---

(١) [٦٨ / القلم / ٤٨] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٤٤ ـ باب قول النبى ﷺ (إنّا بك لمحزونون) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، ١٥ ـ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)

« قَالُوا » اى أولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً » أى مريضاً مشفياً على الهلاك ، « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ » أي بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف. واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكّدوه . و (تفتأ) مضارع فتئ ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منويًّا ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله (١) :

فقلتُ يمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قاعداً ولو قطَعوا رأسى لديكِ وأَوْصَالى

أى : لا أبرح . ومعنى (تفتأ) : لا تزال ولا تبرح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، فخلّونى وشكايتى .

« وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ » أى لمن شكا إليه من إزالة الشكوى، ومزيد الرحمة «مَا لَا تَعْلَمُونَ» ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوّى رجاءهم، وأمرهم أن يرحلوا لمصر، ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) قائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

ألا عِمْ صَبَاحًا أيها الطللُ البالِي وهل يَعِمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالى؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرّفوا من نبئهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ » ـ لم يُقَلْ (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس ـ « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الرَّوْح ، بعد مضىّ المدة فى الشدة ، وسنته فى إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيّما فى حق من أحسن الظن به .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولا نفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى : الشدة من الجدب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاره . استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاباً لرأفته وحنانه . وأصل معنى (التزجية) : الدفع والرمى ، فكنوا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : بردّ أخينا ، أو بالإيفاء ، أو بالمسامحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن المثوبة .

تنبيهات

الأول ـ فى الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم، ببعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة، وتحريك سلسلة الرحمة ـ كما قدمنا ـ ومن ثم ، رقّ لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه ، كما يأتى ـ .

الثانى ـ يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث ـ استدل بعضهم بقوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) على أن أجرة الكيال على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء ـ كذا فى الإكليل ـ وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف. وسيأتى فى التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس ـ فى قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ) حثٌّ على الإحسان، وإشارة إلى أن المحسِن يجزى أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسَن إليه .

ثم بيّن تعالى رأفة يوسف بتعرفه إليهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

« قَالَ » أى يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أى شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب: هل تدرى من عصيتَ

وهل تعرف من خالفتَ ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى [١] : (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

لطائف :

الأولى ـ أبدى المهايميّ مناسبة بديعة فى قول يوسف لهم : (هَلْ عَلِمْتُمْ) إثر قولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أنه يعطيهم فى الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوىّ ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تنكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية ـ قيل : من تلطفه بهم قوله : (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا فى طرق الاعتذار لم يُلْفوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال [٢] : (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغمّ والثكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا » أى : استغراباً وتعجباً من أن هـــذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَئِنَّكَ لَأَنْتَ

(١) [١٢ / يوسف / ١٥] . (٢) ٢٦ / الشعراء / ٢٠] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ » أى : الذى فعلتم به مافعلتم ، « وَهَٰذَا أَخِي » أى من أبوىّ .

قال أبو السعود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخيما لشأن أخيه ، وتكملة لما أفاده قوله : (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) حسبما يفيده قوله :

« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منّ الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذله ، والأنس بقد الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلىّ بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أى ربه فى جميع أحواله ، « وَيَصْبِرْ » أى : على الضراء ، وعن المعاصى ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى أجرهم . وفى وضع الظاهر موضع الضمير ، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر ، موصوفون بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى فضّلك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أى : وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين الذنب ، لم نتق ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ، ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أى : لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى : وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ، إذ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاى عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى (عليكم) من معنى الاستقرار،والمعنى : ولا أثرّ بكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ؟ ! فتعبيره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره ، فَبَعْدَهُ بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى (الدرر) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليـــومَ يرحَمُنَا مـــن كان يَغْبِطُنَا واليوم نَتْبَعُ من كانوا لنا تَبَعَا

ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : (يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) .

وقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى بالعفو والرحمة لهم ، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) . والجملة خبرية سيقت بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .

والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفى له الودّ ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ، ويوردنا مورد الثبور ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ثم قال لهم يوسف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »

أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التى كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون فى مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة فى تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمّه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم فى صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جوّد الكلام فى ذلك الحكيم داود الأنطاكىّ فى (تذكرته) فى مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفى (الكنوز) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازىّ عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحى ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

ولعل الرازيّ عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ولا يخفى أن أسلوب التنزيل فى كناياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .

وقد جوز فى قوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) أن يكون معناه يصير بصيراً ، أو يجىء إلىّ بصيراً، على حقيقة الإتيان . فـ (بصيراً) حال . قيل : ينصره قوله : (وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى، لا يدل على اتحادهما فى المعنى. ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعالهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بعثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقى خمس سنين، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلمّ إلى ، فتقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقى خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف، فسرّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا يأسفوا على ما خلّفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدراهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحبهم عجلات لأطفالهم ونسائهم ، وأوصاهم ألا يتخاصموا فى الطريق ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لروح الله : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» الريح : الرائحة ، توجد فى النسيم . أى : لأتنسم رائحته مقبلة إلىّ . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله فى روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس فى نهاية الشدة زهر الفرَج ، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة فى كلامهم : وفى حديثٍ عند الطبرانىّ : ريح الولد من ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبـــذا ريحُ الْوَلَدْ ريحُ الخُزَامَى فِي الْبَـــلَدْ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون. أو لولاه لصدقتمونى . و(فنّده) نسبه إلى الفَنَد بفتحتين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال فى (العناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقلة فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ مَا الْهَوَى فكن حَجَرًا من يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعّف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لفى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ، إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » أى المخبر بما يسرّه من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ » أى: طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسُه على وجهه، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوّز كون (إِنِّي أَعْلَمُ) كلاماً مبتدأ . والمقول (لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) إن كان الخطاب لبنيه . أو (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : (إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدهم بذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المهايمىّ : صرّحوا بالذنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربّى بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : فى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه أخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف فى السنة ، ومنه شرع الاستغفار فى السحر ، وعقب الصلوات، وقضاء الحج. وكان الدعاء فى السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب للإجابة مما عداه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العَجَل التى بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر ـ وروى أنهم كانوا سبعين نفساً ـ وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها . ثم خرج يوسف فى مركبته ، فتلقى أباه فى (جاسان) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلًا . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم للملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما فى مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهى نفساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الخالة منزلة الأم ، لكونها مثلها فى زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله[1] (وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَاقَ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أى من القحط وأصناف المكاره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » أى أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » أى سجد له أبوه وإخوته البالغون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا » أى السجود « تَأْوِيلُ » أى تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أى

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

التى رأيتها أيام الصبا ، وهى سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع فى الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجانى من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لى مفوضاً إلىّ خزائن الأرض . وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، وفخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر. وفيه إشارة إلى النعمة فى الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان فى حبس الرشيد :

وَمحلةٍ شمل المكارهُ أهلَها ... وتقلدوا مشنوءَةَ الأسماءِ
دارٌ يُهابُ بها اللئامُ وتُتَّقَى ... وَتقِلُّ فيها هيبةُ الكرماءِ
ويقول عِلْجٌ ما أرادَ ، ولا ترى ... حرًّا يقول برقة وحياءِ
وبرقّ عن مسٍّ الملاحة وجههُ ... فيصونه بالصمت والإغضاءِ

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا من الدنيا ونَحْنُ منَ أهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتَى
إِذَا جاءَنا السجّان يوماً لحاجةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا: جَاءَ هَٰذَا مِنَ الدُّنيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علىّ بن الجهم :

قالوا : حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى ... حبسى . وأىُّ مهندٍ لا يُغْمَدُ ؟
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألفُ غَابَهُ ... كِبْرًا وأوباشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
والبدرُ يُدْرِكُهُ المحاقُ فَتَنْجَلِى ... أيَّامُهُ وكأنه مُتَجَدِّدُ
ولكل حالٍ مُعْقِبٌ وَلَرُبَّمَا ... أَجْلَى لك المكروهُ عمَّا تَحْمَدُ
والسجنُ ، مالم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ ... شَنْعَاء ، نعم المنزل المتوَرَّدُ
بيت يُجَدِّدُ للكريمِ كَرَامَةً ... فيُزَار فيه ولا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل فى تسلية المسجونين قول البحترىّ :

أمـا فى رسول الله يوسفَ أسوةٌ لمثلك محبوسًا على الجَوْر والإفْكِ
أَقامَ جميلَ الصَّبْر فى السجن برهةً فآلَ بِهِ الصبرُ الجميلُ إلى المُـلْكِ

ـ نقله الثعالبىّ فى (اللطائف واليواقيت) ـ .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ » أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه . وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً .

« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ » بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأقضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

« رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيما ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما، « أَنْتَ وَلِيِّي » أى مالك أمورى، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى من النبيين والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما أتم عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجـله قبضه على الإسلام ، وألحقه بالصالحين . فليس فيه تمنٍّ للموت ، وطلب التـوفى منجزا كما قيـل .

روى الإمام أحمد والشيخان [١] عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستعتب : ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لى وفى رواية : وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى .

تنبيهان

الأول ـ فى فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتى مثله فى التشييع ، ومنه ما روى فى تشييع الضيف . ويستدل ممـا روى أن المراد بأمه خالته ـ كما مر ـ أن من نسب رجلا إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش ـ وهو السرير الرفيع ـ جواز اتخاذه ، ورفع الغير ، تعظيما للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير [٢] :

أرض الحراثةِ لو أتاهـا جَرْوَلٌ ... أعنى الحُطَيْئَةَ لاغتـدى حرّاثا

ما جئتهـا من أى وجـهِ جئتها ... إلا حسبتَ بيوتهـا أجْداثا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٠ ـ باب الدعاء بالموت والحياة ، حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعتنا) .

والإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) البيتان لأبى تمام ونصهما كما فى الديوان :

لم آتها من أىّ وجـه جئتها ... الا حسبتُ بيوتها أجـداثا

بلد الفلاحة لو أتاها جرول ... أعنى الحطيئةَ لاغتدى حراثا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطئه . ومطلعها :

قِفْ بالطول الدارسات عُـلاثا ... أمستْ حبـالُ قطينهن رِثاثا

انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

وفى الحديث [١] : (من بدا جفا) أى : من حل البادية . وفى آخر [٢] : (إنّ الجفا والقسوة فى الفدادين) . ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن . اهـ بزيادة .

الثانى ـ قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدوم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكلمه حصة ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض فى مصر ، وهى أرض رعمسيس ، أى عين شمس ، وملكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فمثلهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه ـ كما أوصاهم يوسف ـ : نحن وآباؤنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا فى أرض مصر بجاسان ، فتملكوا فيها ، ونموا وكثروا جدًّا . وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل احملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتعش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناى رَزقنيهما الله هاهنا . فقال : أَدْنِهِما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعالهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أرانى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسفَ بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائه فى المغارة التى فى حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى).

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٥ ـ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث ونصه : ألا إن القسوة وغلظ القلوب .. الخ وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ (طبعتنا) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، وليأة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون فى موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه فى المغارة ـ كما أوصى ـ ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التى كتبها الله لآبائهم . ثم توفى يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه فى تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنما لم يذكر هذا ، القرآنُ الكريمُ ، لأن القرآن لم يبْنَ على قانون التاريخ ، فليس فيه شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هى الآيات والعبر ، تجلت فى سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتى الإشارة إليه فى قوله تعالى[1] : (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ) ، وقوله[2] : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) . ومضى فى المقدمة بسط هذا البحث ، فراجعه . وسنذكر إن شاء الله فى آخر السورة شيئاً . من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ماسبق من نبأ يوسف ، البعيد درجةُ

---

(١) [١٢/ يوسف/ ١١١] . (٢) [١١ /هود/ ١٢٠] .

كماله فى جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ.

وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل على كونه نبأً غيبيًّا ووحياً سماويًّا . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحى ، لأنك لم تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم فى البئر ، وهم يمكرون به، إذ حثوه على الخروج معهم ، يبغون له الغوائل ، وبأبيهم فى استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد إجماعهم ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة، وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله تعالى (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) . والخطاب ـ وإن كان لرسول الله ﷺ ـ لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم. وفيه أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه . يعنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى . ومثله قوله تعالى[1] : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) . وقوله[2] : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) انتهى .

وقوله تعالى :

---

(١) [٣/ آل عمران / ٤٤] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ » أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسل ، لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . يعنى : قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى[1] : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قال الرازىّ : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبىّ عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظَنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم ، قيل له : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى[2] : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ » أى على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد ، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، يعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة . يعنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمراشد القويمة ، وأنت لا تطلب فى تلاوته عليهم مالاً ، ولا جعلاً . فلو كانوا عقلاء لقبلوا ، ولم يتمردوا .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨و٦٧ و ١٠٣و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و١٧٤ و١٩٠] .
(٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

قال بعض اليمانين : فى الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

«وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أى : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، فى السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفى الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازىّ : يعنى أنه لا عجب إذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لابد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهى قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم ، فلابد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام الكوكبية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها فى حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهى عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهى أقسام :

أحدها ـ الآثار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح وثانيها ـ المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

ثالثها النبات وخاصية الخشب والورق والثمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص ، وخاصية مخصوصة .

ورابعها ـ اختلاف أحوال الحيوانات فى أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .

وخامسها ـ تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد ، وقهروا العباد ، ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقى الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشرىّ لا يفى بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر فى الكتاب العزيز مجملا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أى : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللهِ » أى فى إقرارهم بوجوده وخالقيته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أى : بعبادتهم لغيره ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا ، وبقولهم باتخاذه تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً .

تنبيه :

كما تدل الآية على النعى عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفيّ ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رئاء الناس ، وهو مشرك بعمله . يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى ـ ولكن لا يخلص له فى عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبيّ ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى[1] : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور ، فلا يقبل منه .

وروى مسلم[2] وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد[3] عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبيّ ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .

ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه[4] : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا . . .) الآية ـ وقال أصحاب هذا الشرك

---

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعتنا). (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

لآلهتهم ، وقد جمعتهم الجحيم[١] : (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحـــانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به فى الحب والتألّه ، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم . فـكيف يسوّى من خلق من التراب ، برب الأرباب ؟ وكيف يسوّى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنىّ بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملـكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أقبح من هذا وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عـــدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيّم فى (الجواب الـكافى)

قال الحافظ ابن كثير : وثَمّ شرك خفىّ لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفـــة أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وفى الحديث[٢] : من حلف بغير الله فقد أشرك ـ رواه الترمذىّ عن ابن عمر وحسّنه.

وفى الحديث الذى رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤] وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرق والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنـــح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١٨ ـ كتاب النذور والأيمان ، ٩ ـ باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٧ ـ باب فى تعليق التمائم ، حديث رقم ٣٨٨٣ .

من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه! فأخذه فقطعه ، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . قالت: قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهوديّ يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفّ عنها ، كان يكفيك أن تقولي كما قال النبيّ ﷺ: أذهبِ الباسْ ، ربَّ الناسْ ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد [١] عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمة فقط أشرك !

وأخرج أيضاً [٢] عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك .

وبماذكر يعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجود مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذه من الشفعاء ، ومايعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلا ، ما يؤمن أحدهم بالله إلاوهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفيّ . وعلى هذا ، فالشرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ولرسوله ، فلهما أن يوقعا أي اسم شاءا على أي مسمى شاءا . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ). والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك فى عبادته تعالى ، وفى خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، ولا موتا ولاحياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذ العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنىّ بالذات . ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبيه له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التى قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع ، وقبحُه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسنى . إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما فى جانب التشبه به ، فمن تعاظم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفا ، ورجاء ، والتجاء ، واستعانة ، فقد تشبه به ، ونازعه فى ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفى الصحيح (١) عنه ﷺ قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفى الصحيح (٢) عنه صلى الله عليه وسلم. أغيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه فى الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتتمة هذا البحث فى (الجواب الكافى) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب، حديث رقم ١٣٦ (طبعتنا).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١١٤ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله، حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقمى ٢٠و٢١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ » أى: عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإتيانها . وهذا كقوله تعالى(١) : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) وقوله(٢) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلى ، أى طريق ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّثان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفته بصفات كماله ، ونعوت جلاله « عَلَى بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمياء . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللهِ » أى : وأنزهه

(١) [١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩] .

وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك أو ندّ أو كفء أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السمين (أَدْعُو إِلَى اللهِ) يجوز أن يكون مستأنفا ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالا من الياء . و (على بصيرة) حال من فاعل (أَدْعُو) . أى : أدعو كائنا على بصيرة. وقوله : (وَمَنِ اتَّبَعَنِى) عطف على فاعل (أَدْعُو) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعنى يدعو أيضاً . ويجوز أن يكون (عَلَى بَصِيرَةٍ) خبراً مقدما، و (أَنَا)مبتدأ مؤخراً ، و (مَنِ اتَّبَعَنِى) عطف عليه ومفعول (أَدْعُو) إما منوىّ ، أى الناس ، أو منسىّ .

الثانى ـ دل قوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ـ انظر (رسالة التوحيد) فى تتمة ذلك ـ .

الثالث ـ دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازىّ : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله. وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها. ويزيد بياناً للأمور التى يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شىء من العلم، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملا ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعمّ الهلاك ، ويعظم البلاء . وقلما تختبر عامياً ـ وأكثر الناس عامة ـ إلا وجدته جاهلا بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التى لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشىء منها ، وإن لم يوجد جاهلا بالكل ، وجد جاهلا بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علما مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلا فعلت ذلك بأيسر مؤونة، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم فى بيان الأمر الذى جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه فى صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغى للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته فى غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويعم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أى لا ملائكة

من أهل السماء. ردّ لقول المشركين[١] : (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً). وهذا كقوله[٢] تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) . وقوله[٣] : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله[٤] : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتج بقوله تعالى : (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم فى سلك النبوّة امرأة .

والقرى : جمع قرية ، وهى على ما فى (القاموس) : المصر الجامع . وفى (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قرارًا ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لاأنهم من أهل البوادى الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون فى البوادى . ولهذا قال تعالى[٥] : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقاً . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل العُمور .

وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذّبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى[٦] : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

---

(١) [٤١ / فصلت / ١٤] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٨]
(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٩] (٥) [٩ / التوبة / ٩٧] . (٦) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

قال ابن كثير : أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى [١] : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فتعلموا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أوائك .

ثم بيّن تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتيهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا. يعنى: الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» يقرأ (كُذِّبُوا) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم. ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى (ظَنُّوا) ـ على ما اختاروه ـ للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله تعالى [٢] : (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ)وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأوّلوا لكلامه وجوهاً :

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزمخشرىّ : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهجس فى القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة فى التراخى والإمهال ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة فى التراخى بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدهما للآخر .

وقال الخطابىّ : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكْذَبُ بالوحى ، ولا تشك فى صدق المخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر، وشدة استنجاز ما وعدوا به ـ توهموا أن الذى جاءهم من الوحى كان حسباناً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط فى تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذى بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتى بالوحى . والمراد بـ (الكذب) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل (وظنوا) الرسل .

وقال أبو نصر القشيرىّ : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل، فصرفوه عن أنفسهم. أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذىّ الحكيم : وجهه: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدىّ عن ابن الأنبارىّ أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معوّل عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تؤوِّل عليه .

قال ابن حجر : وعجبٌ لابن الأنباريّ فى جزمه بأنه لا يصح ثم للزمخشرى فى توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أى : فرواه البخاريّ[١] فى تفسير البقرة بلفظ: ذَهَبَ بها هناك ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيليّ عنه : كالوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاريّ[٢] أن عائشة كانت تقرأ (كذبوا) مشددة ، وتتأوّلها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله !

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر فى أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه فى ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القرّاء: عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائىّ . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى عبد الرحمن السلمىّ والحسن البصرىّ ومحمد بن كعب القرظىّ فى آخرين .

وقوله تعالى : « فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ (فننجى) بالتخفيف والتشديد . وقرئ (فنجا) .

« وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا » أى عذابنا . « عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : إذا نزل بهم .

وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم.

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء وأممهم . ورجّح الزمخشرىّ الثانى بقراءة (قِصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ فى (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ)[1] . وسنذكر وجوه العبر منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَى » أى : يختلق . « وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة، بدليل وجود أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهى وإن اختلفت قليلًا فى بعض التفاصيل والجزئيات ، عما يرويه الناس ، إلا أنها توافقها فى الجملة ، وتصدقها فى الجوهر. فلا تظنوا أيها المشركون أن النبىّ اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم، ومروية فى كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبىّ صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل فى شىء ما ، كلا ! إذ لو صح

(١) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

هذا لما قال تعالى [١] : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله. فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم فى الجملة ، ومخالفته لها فى بعض الجزئيات ـ كما قلنا ـ ويجوز أن يكون المراد بقوله: « تصديق الذى بين يديه » تصديق الحق الذى عندهم ، لا كلّ الذى عندهم ، وإلا لدخل فى ذلك عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ » أى . تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغىّ إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبتغى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهُدًى » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون به ، ويعملون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعَقْدٌ وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

خاتمة فى مباحث مهمة

الأول ـ فيما قيل فى وجوه العبر فى هذا القصص .

قال فى (اللباب) : الاعتبار والعبرة: الحالة التى يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكر . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجبّ بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع، قادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٧٦] .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، جمة الفائدة ؛ وجليلة العائدة ، تحدو بكل امرئ أبيّ إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر فى حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سريرته ، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة ، ولا سيما فضيلة العفة والطهارة ، التى ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسنم ذروة المجد فى هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة فى الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبيّ ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبت المشار إليه فى قوله تعالى[1] : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ . . .) الآية . وإنما أفردت على حدتها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم فى سورة واحدة ، لمفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره ، وشتات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجبّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضرّ ، وقلة ذات اليد[2] (مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . .) الآية . ثم تداركهم الله بإلفهم ، وجمع شملهم ، وردّ بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزغ به الشيطان . وخلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبراءته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم أجرّ فى أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وشهادتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [١١ / هود / ١٢٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٨٨] .

ما انجرّ فى هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ماذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وماجرى فى أممهم ، فلهذا فصلت عنهم. وقد أشار فى سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما فى طىّ ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة فى قوله[1] تعالى:(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ...) إلى قوله : (أَمْناً) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجملتها أشبه شىء بحال المؤمنين فى مكابدتهم فى أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم[2] : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص ـ والله أعلم ـ .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، فى صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر فى الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام فى مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلمته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمّل ذلك ! ويوضحه ختم السورة بقوله : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه ـ كذا فى تفسير البرهان للبقاعىّ ملخصاً ـ .

وجاء فى كتاب(النظام والإسلام) فى بحث التربية والآداب فى قصص القرآن ما مثاله:

طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما فى غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال . يا ليت شعرى ! ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنهـا أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٣] .

المؤرخين . القصص فى كل أمة ، عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعية أم حقيقية ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب (كليلة ودمنة) ، وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الإسلام ، ككتاب (فاكهة الخلفاء) ، و (مقامات الحريرى) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهى ـ لا جرم ـ أعلى منالًا ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها فى أنفسها ، لوقوع مواردها ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت فى سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر ؟! ومالنا ولها إذن ؟ ! تالله إن هذا لهو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم ، وماسطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصّون فى خرافتهم ، فتلك سبيل حائد عن الجادّة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول [1] : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبيّن الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة ؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلا على البرهان . تأمّل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معوّل عليها . فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذّ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصدّيق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمرة . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له فى الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأمّلون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمّل فى قصة الإخوة ، وحديث القميص والجبّ والذئب والدم ، لتعلم ما نشاهده كلّ يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسىّ ، والخلق المرضىّ ، والجلال الظاهر على ملامحه. فيعيبونه بما يشينه فى نفسه أو عرضه أو خلقه، دلالة على أن هذه سنّة فى الكون لا تغادر نبيًّا ، ولا حكيماً ، ولا عالماً مهما حسنت أخلاقه، وجمل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها إلّا عداوة مَن عاداك من حسد .

جرت تلك السنّة فى الأناسىّ : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر فى حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عفّ مع الشباب، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه فى الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتّسم بالفضيلة ، فتوازى جماله الباطنىّ والظاهرىّ . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع فى الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح ، التى تضمّنتها تلك القصّة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل فى كلام الحكماء ـ أولهم وآخرهم ـ

نجد إجماعهم على أنّ سياسة أخلاق النفس أوّلًا فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله !

بايع الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ الخليفة الأول ، فأخذ قماشاً وذراعاً وذهب إلى السوق فى الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضعت أهلى ، فأنا للمسلمين أضيعُ ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر فى شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين ـ إذا وَلّوا رجلًا إدارة بلادهم ـ أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبيّ يوسف الصدّيق كيف ذكرت فى الكتب السماوية ، ورتبت فى القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبنى الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة فى عنفوان الشباب مع الصديق . وليت شعرى ! كيف حَفظَ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء فى وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم ، وعَبَدَ اللهَ وحده ، ونسى ما يراه من أبى الهول وأبيس والأرباب المتفرقة .. ؟ ! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كلّ جانب ، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون فى أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف فى أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ، فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كلّ جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله ، وبثّ عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم[1] : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ...) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .

لمذهبهم ، وبغضه لأصنام المصريين ، ونحوهم ، فقال[١] : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ . . .) الآية . ثم أخذ يذكّرهم أنّ تفرّق وجهة الأمة ضلال فى السياسة، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال[٢] : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تَسُدْ أمة فى الوجود إلّا برجالٍ يوحّدون وجهتها أيًّا كانت فيؤمّون مقصداً واحداً ! والتفصيل لا يخفى على أولى الألباب . . !

وفى (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابى اثنتا عشرة جامعة بكلٍّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر. ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران ـ سياسة النفس والعشيرة ـ أخرج من السجن معظماً مبجلًا وترقى من تعليم الصعلوك فى السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يريهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبّر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف، وأرشدهم إلى خزن البُروسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هى المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكياسة فى علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إمّا بوحىٍ وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليمٍ وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكابر ، كما فى حديث[٣] هرقل مع أبى سفيان ، وتعليم الصدّيق من فى السجن. فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

---

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .   (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب الوحى ، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبى سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال فى سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة فى ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التى تتغير بها الأخلاق، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص!

وهذه قصة يوسف ـ الذى تربى فى مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة ـ جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصّا بالآخرة، بل فى الدارين[1] : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

هذه هى الأخلاق الفاضلة ، ذكرت فى التنزيل نموذجاً، فى غضون هذه السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيّعوا الزمن فى أصلها وموردها فى التاريخ كما يجمد المفسّر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر فى أولها[2] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسّكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصغ إلى ما فى هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقا ، ولنزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينتظم أمر الأمة إلّا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق معهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًّا فله أربعون خصلة ذكروها. كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيساً فاضلاً

(١) [١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء فى سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدًى لاختيار الأكفاء فى مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هى أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر فى القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين ـ العاشقين للفضائل ـ على نفائس الكتاب العظيم ، وحبًّا فى نظرهم فى القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت مالم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنّى به ومجرّد اللهو واللعب .!

أهم ما شرطه الحكماء فى رئيس المدينة الفاضلة :

١ ـ العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(١) .

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)(٢).

٣ـ وضع اللّين فى موضعه، والشدّة فى موضعها(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)(٣) ، والصدر للين والعجز للشدة .

٤ ـ ثقته بنفسه (اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(٤) .

٥ ـ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)(٥) .

---

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٧] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٥٩و٦٠] . (٤) [١٢ / يوسف / ٥٥] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

٦ — جودة المصوِّرة والقوة المخيِّلة حتى تأتى بالأشياء تامة الوضوح (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)(١) .

٧ — استعداده للعلم ، وحبّه له ، وتمكّنه منه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)(٢) ، (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)(٣) ، (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)(٤) .

٨ — شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ...)(٥) الآية ، وحادثهما فى أمور دينهما ودنياهما ، فالأول بقوله : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ)(٦) ، والثانى بقوله : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ...)(٧) الآية ، وشهدا له بقولهما : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)(٨) .

٩ — العفو مع القدرة (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)(٩) .

١٠ — إكرام العشيرة (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)(١٠) .

١١ — قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

---

(١) [١٢ / يوسف / ٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٨] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٢٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠١] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٣٩] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٧] .
(٧) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٨) [١٢ / يوسف / ٣٦] .
(٩) [١٢ / يوسف / ٩٢] . (١٠) [١٢ / يوسف / ٩٣] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلّا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)[١] .

١٢ ـ حسن التدبير (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...)[٢] الآية .

ثم تأمل فى اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ...)[٣] الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ . . . .)[٤] الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)[٥] الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[٦] ، امتدح على حسن خطته فى السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه ـ وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر ـ فهى أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء !

تالله ! ما أجل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعرى كيف يقول الله بعدها (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[٧] ولولا مافيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٤] .
(٢) [١٢ / يوسف / ٤٧] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٦٢] .
(٤) [١٢ / يوسف / ٧٦] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٧٤] .
(٦) [١٢ / يوسف / ٧٦] .
(٧) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وضوحها وبساطتها لذوى النظر السطحى والبُلْه الغُفَّل ، ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدبير هـذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)[1] . وهذه : ـ وايم الله ـ هى بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف فى الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولا للبيوت من أبوابها ؛ ولـكن بينهم وبين هذا النبى بون بعيد . . . ! فانظر كيف تعطى هذه القصة هـذه الأمور العجيبة !

لعمرى ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحـكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحـكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله فى أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)[2] ، ويقول فى آخرها : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)[3] ويقول : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[4] ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغى له أن ييأس من روح الله فقال : (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .)[5] الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، ما كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى . . .)[6] الآية . وهذه ترشدك ـ إن كنت من ذوى الهمة العالية ـ أن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .
(٢) [١٢ / يوسف / ٣] .
(٣) [١٢ / يوسف / ١٠٢] .
(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٨] .
(٥) [١٢ / يوسف / ١١٠] .
(٦) [١٢ / يوسف / ١١١] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تعجل بالرآسة حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنال حظًّا وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبيّ عليه السلام أياما وأياما ، ولبس للحوادث أثوابا وأثوابا ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارئ : سبحان من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر فى السموات والأرض فيعرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا فى السموات والأرض مما ذرأ المبدع فى الكون ، وتلا القرآن ـ وهو كلام مبدع الكون ـ وتلطف فى تصوير المعانى ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلا عن العامة ! فما للعامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبيّنون ؟ وما للناس لا يكادون يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاطاً لهمم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة ـ على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب فى هذه القصص فأعرض ! وجلىّ أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفى كل واحدة منها ما ليس فى الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء فى شجرة الحنظل مرًّا . فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة ، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها ،

ولـكن هذا أرقى مما قبله ـ فقد سار فى الطريق وهى الألفاظ ، ولـكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحثَ فيه ! وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثـل هؤلاء فى سيرهم إلا كمثل رجل أوتى آلة بخارية ليسقى بهـا الحرث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفـكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب المـاء ؟ وإلى أى مسافة يرتفع ، وماالعلة فيه، ومن أين يأتى الفحم الحجرىّ ، وفى أى الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جـل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم ! وهذا ـ لعمر الله ـ انتـكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

المبحث الثانى

احتج من جوز المعصية على الأنبياء ـ وهم الـكرّاميّة والباقلّانىّ ـ بما جرى من إخوة يوسف وبيعهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخـذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله فى (الملل والنحل) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاء قط ـ فى أنهم أنبياء ـ نصٌّ لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضى الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، قال عزوجل[1] :(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ

(١) [٤٠ / غافر / ٣٤] .

بِهِ . . إلى قوله ـ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولَين ـ أباهم وأخاهم ـ قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا ـ من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء ـ قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهم أنه قال لهم : (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا)[1] ولا يجوز البتة أن يقوله لنبيّ من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ! ؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكانًا ! وقد عقّ ابن نوحٍ أباه بأكثر مما عقّ به إخوة يوسف أباهم ، إلّا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحلّ لمسلم أن يُدخل فى الأنبياء مَنْ لم يأت نصّ ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوّته ! ولا فرق بين التصديق بنبوّة من ليس نبيًّا ، وبين التكذيب بنبوّة من صحّت نبوّته منهم ! فإن ذكروا فى ذلك ماروى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبيّ بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلّة عالمٍ ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها ـ أنه لو كان ماذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم فى المهد كما نبّئ عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحيى الحكم صبيًّا ؛ فعلى هذا القول لعلّ إبراهيم كان نبيًّا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا ..!

وثالثها : أن ولد نوح كان كافراً بنصّ القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا ، وحاشا لله من هذا ..!

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بدّ أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكلّ من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . . . أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفى هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه ـ مالا خفاء به. وبالله تعالى التوفيق . . !

ثم قال ابن حزم .

وذكروا ـ يعنى الكرّاميّة ومن وافقهم ـ أيضاً أَخْذَ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيحاشَه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدّة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقاسى به من الوجد عليه، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلّا عشر ليال ! وبإدخاله صواع الملك فى وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف[1] (أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى[2] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذى كان معه فى السجن[3] (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم فى شىء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك فى أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم فى مملكة أخرى، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذى أوتى العلم والمعرفة بالتأويل ـ إلّا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّ بخلاف ما ذكرنا. ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنّهم ـ أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل ـ فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب فى أرض كنعان من عمل فلسطين ، فى قومٍ رحّالين خصاصين فى لسان

(١) [١٢ / يوسف / ٧٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بعد فراقه أباه بما فعل ، ولا حيّ هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبئهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذى ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأميرٍ واحد وملّة واحدة ، ولسانا واحدا وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبُرُد ناهضة وراجعة ، فظنّ كلّ بيضاء شحمة[1] ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كما قدمنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذى كان عمّ الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانتظر وعد ربّه تعالى الذى وعده حين ألقوه فى الجبّ فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى فى رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذى كان قد أدخله فى وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال[2] : (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) وهو فى ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفى حقّ لاستنقاذ الله تعالى بحسن تدبيره ، ولعل الملك أو بعض خواصّه قد آمن به إلّا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مرية فى أن ذلك كان مباحًا فى شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى[3] : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً فى شريعتهما بل كان فعلًا حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل (ما كلّ بيضاء شحمةً ، ولا كل سوداء تمرةً) انظر : أمثال الميدانى ، الصفحة ١٥٦ من الجزء الثانى (المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ)

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] . [٥ / المائدة / ٤٨] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلّا أن الذى لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل وإنما كان سجود كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذى كان معه فى السجن[١] (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) فما علمنا الرغبة فى الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس فى قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عزّ وجلّ . لكنه رغّب هذا الذى كان معه فى السجن فى فعل الخير وحضّه عليه ! وهذا فرضٌ من وجهين : أحدهما وجوب السعى فى كفّ الظلم عنه ، والثانى : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى[٢] (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فالضمير الذى فى (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذى كان معه فى السجن ، أى : أن الشيطان أنساه أن يُذكّر ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجلّ لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عزّ وجلّ[٣] (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) فصحّ يقيناً أن المذّكّر بعد أمة هو الذى أنساه الشيطان ذكر ربّه حتى تذكّر . وحتى لو صحّ أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان فى ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء ! وأما قوله[٤] (هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فليس كما ظنّ من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال: (إنه قعدمنها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظنّ برجل من صالحى المسلمين أو مستوريهم ! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة فى قول أحدٍ إلّا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم فى تلك الرواية إنما هى بلا شك عمّن دون ابن عباس ، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذْ إنّما أخذه عمن لا يدرى من هو ، ولا شك فى أنه شىء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٢] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٢] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٤) [٢٢ / يوسف / ٢٤] .

كما قال تعالى[١] (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وكما يقول القائل: لقد هممت بك، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها. وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ماظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص . والوجه الثاني : أن الكلام تمّ عند قوله (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوّة وعصمة الله عزّ وجلّ إياه . ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك. وقد خشي النبيّ ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأنصاريين حين لقيهما: هذه صفية[٢] ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى[٣] (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) ! فنسأل من خالفنا عن الهمّ بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلابدّ أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذ هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهمّ بيقين ! وأيضاً فإنها قالت[٤] (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق[٥] (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فصحّ أنها كذبت بنص القرآن ، وإذ كذبت بنصّ القرآن فما أراد بها قط سوءًا ، فما همّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بيّن جدًّا ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال[٦] (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برمّته لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيءٍ كلّه حسن .. !!)

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥]. (٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث ١٠٣١. (٣) [١٢/يوسف/٢٤]. (٤) [١٢/يوسف/٣٥]. (٥) [١٢/يوسف/٢٦]. (٦) [١٢/يوسف/٣٣].